

والاطاحة بالسلطان الصليبي من القدس. إذ حاول رتشارد الاستناد إلى دعوى تاريخية باطلة فقال، في رسالته لصالح الدين: «أيها السلطان العظيم، تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد. وقد أخذ الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد. والقدس متعبدا، ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا رجل واحد. وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع (الأردن، من أرض فلسطين) وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار لها، وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب»<sup>(١)</sup>. فأجابه صلاح الدين برد يعدّ من أروع الوثائق التاريخية لدعم حقوق العرب؛ فقد قال له: «أما القدس، فهو لنا كما هو لكم فلا تتصوروا أننا ننزل عنه. وأما البلاد، فهي لنا في الأصل. وأما الصليب، فهلاكه عندنا فريّة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيها»<sup>(٢)</sup>.

لقد اتخذ هذا اللون من المؤلفات التاريخية الخاصة بفلسطين طابعاً اشتهر باسم «كتب الفضائل»<sup>(٣)</sup>؛ وهي تعني، فيما تعني، تعريف العرب بتلك البلاد التي تعرضت للعدوان، وما لتلك البلاد من حقوق دينية على المسلمين والمسيحيين تستوجب الدفاع عنها. فأوضحت «كتب الفضائل» أهمية فلسطين من الناحية الاقتصادية، مثلاً، مبينة أنها عصب الحياة الاقتصادية لبلاد الشام. وبلاد الشام تنعم، بفضل موقعها الجغرافي على شرق البحر المتوسط، بالسيطرة على طرق التجارة الدولية. وشرحت هذه الكتب كيف أن الاستعمار الأوروبي الذي تسرّ تحت ستار الدين، استهدف، في حقيقة الأمر، انتزاع السيادة التجارية من أهل فلسطين والشام. ولهذا، فإن أول عمل قام به المستعمرون، غداة اغتصابهم فلسطين، كان إقامة مراكز تجارية على سواحلها المطلّة على البحر المتوسط. وبفضل مؤلفات المؤرخين العرب «تشجعت عامة المسلمين على الارتحال إلى فلسطين، لا خضوعاً للعواطف الدينية فحسب، ولكن للافادة من خيراتها المادية كذلك»<sup>(٤)</sup>. وأصبح هذا العامل المادي مع الزمن، ينبوعاً دافقاً يزود جماعات المجاهدين في سبيل الدفاع عن أرضهم ومكسب رزقهم.

وقد حرص المؤرخون العرب، في كتاباتهم، على الاحتفاظ بتماسكهم الفكري؛ مما دفعهم إلى تطوير أبحاثهم، فظهرت، من بينهم، أربع مجموعات كبرى. ويمكن لنا أن نمايز بين هؤلاء المؤرخين، حسب مصنفاتهم، على النحو التالي:<sup>(٥)</sup>

المجموعة الأولى، ويمكن أن نسميها: «رواد حركة التحرير الفلسطينية»؛ وهي جماعة المؤرخين الذين ساندوا صلاح الدين الأيوبي وخلفاءه من بعده في تحرير فلسطين.

المجموعة الثانية وقد عرفت باسم «المؤرخين الفقهاء»؛ وهي المجموعة التي ساندت اتساع مفهوم «حركة التحرير الفلسطينية»، نتيجة تركيز الصليبيين لهجومهم على مصر بدلاً من الشام وفلسطين، فتجلّى نشاط هذه المجموعة طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

المجموعة الثالثة، وتعرف باسم: «عشاق فلسطين»؛ وهي مجموعة من المؤرخين الذين لم يقتصرُوا، في أبحاثهم، على الدراسة النظرية، وإنما عمدوا إلى زيارة فلسطين للوقوف على حقيقة الواقع، وإظهار مشاهداتهم الشخصية تشويقاً لغيرهم للمجيء إلى